المشرق

المستطرفات المستظرفات

في حياة السيد جرمانوس فرحات

لحضرة الكاتب الفاضل الاقس جرجس منش الماروني الحلبي

توطئة

ما كدت اعلم بهذا نابغة القرن الثامن عشر حتى أولعت بجمع اخباره وآثاره فجمعتُها وانا تحترق البوادي لئلا تضحي اثرًا بعد عين. ولمَّا رأيتُ السواد من القوم يتوق الى الوقوف على سيرته اللطيفة حرّكني عندئذٍ حبُّ الوطن العزيز واعلاء منار الفضل الى تحقيق امنيّتهم فصرفت للهمّة القاصرة الى تسطير ما جمعتهُ من ترجمة حالهِ على قلّة ابتذالها (١ وقد بلغ ما كتبتُ في هذا الرجل العظيم نحو ٢٥٠ صفحة انشرها ان شاء الله يوماً في كتاب مستقل وقد رأيت ان اتحف الآن قرّاء المشرق بهذه الترجمة

١) اول من ترجم السيد جرمانوس فرحات فيما اعلم هو الشيخ رشيد الدحداح في احكام باب الاعراب. وعنهُ اخذ طابع كتاب فصل الخطاب في مطبعة طانيوس. وعنهُ اخذ المعلم بطرس البستاني في دائرة المعارف. وعنهُ اخذ الشيخ سعيد الشرتوني في ديوان صاحب الترجمة وكلهم اخذوا عن ترجمة جمعها احد كتبة حلب اجابةً لطلب الشيخ رشيد الآنف الذكر والنسخة الاصلية وقعت اليَّ في هذه الايام الاخيرة بيد ان هذه الترجمات مختصرة لا تفي بالمراد

المختصرة (١ مجريا فيها الاكتفاء بذكر المآثر الجمّة والخدم الجلّة التي اتاها هذا الجهبذ الطائر الشهرة في جنب الدين والعلم والفضيلة والانسانية فاقول وعلى الله التكلان

١ الصبي

هو فيض المزنة الصيّبة وفرع الاروعة الطيّبة رحلة بلغاء عصره وقدوة فضلاء مصره شهيد العلم والادب ومجد الدين المنتخب الحبر البحر العلامة والامام الكبير الفهامة جبرائيل بن فرحات مطر بن شاهين المشرقي ابن رعد الحصروني الحلبي الماروني الشهير. وينمي نسبهُ الى الاسر المارونية الشهيرة كأسرة السماعنة واسرة عوّاد واسرة مسعد واسرة الشدياق ولله درّ الكاتب النحرير والشاعر المجيد بشارة افندي الشدياق الذي جمع هذه الفروع في تهنئة المثلث الرحمة البطريرك يوحنا الحاج بقوله (٢ :

بنوك من جذمك المشهور يحمدنا السمعد والسوّاد والمطرُ

وكان مولد هذا النابغة في محلّة الصليبة (٣ من مدينة حلب الشهباء في العشرين من تشرين الآخر (٤ احد شهور عام ١٦٧٠ للميلاد فاستبشر به والداهُ الفاضلان ايّ استبشار ودعواهُ يومَ تنصيره (٥ باسم جبرائيل بشير مريم العذراء تيمّنًا وتبرّكًا كأنّ الله تعالى اوحى اليهما ان هذا الصبيّ الصغير سوف يكون له نذيرًا وبه بشيرًا يرشد شعبهُ الى سبيل اليمن والامن والسلامة

١) اعتمدت في هذه الترجمة على كتب عديدة اخصُّ منها بالذكر: اولًا بعض تآليف صاحب الترجمة. ثانيًا فهرست مؤلفاته. ثالثًا بعض سجلات الاسقفية المارونية بحلب. رابعًا جامع الروايات في اخبار جبرائيل فرحات (انظر المشرق ٣: ١٠٧٨). خامسًا تاريخ كنائسي مخطوط (راجع المشرق ٥: ٧٨٧). سادسًا ثلاثة نسخ من تاريخ الرهبانية المارونية: الاولى خطية منفردة والثانية منشورة في تاريخ الموارنة للدويهي والثالثة مثبتة في مختصر تاريخ لبنان لانطونيوس العين طوريني (طالع المشرق ٤: ٧٦٩)

٢) راجع ص ٥٤ من القلادة المسجدية

٣) كذا قال صاحب الترجمة في مادة (ص ل ب) من معجمه وكانت هذه المحلّة قبل مئتي سنة تُدعى محلّة الجُديدة بالتصغير على ما في بعض المخطوطات وسجلات الحكومة السنية

٤) جاء في جامع الروايات ان مولد جبرائيل كان في الحادي عشر من الشهر السابق الذكر

٥) في الـ ٢٦ من شهر تشرين الثاني

ولقد استشعر هذان الوالدان التقيان بالمنة العظيمة التي اتاحها الله لهما فعنيا بتثقيفه اي عناية وقاما بتربيته احسن قيام كانا اعداداً وديعة انتدبها الله عليها فارضعاه لبان التقى وافاويق العلم منذ نعومة اظفاره وجعلاه في السابعة من عمره سنة ١٦٧٧ في الكتّاب الماروني (١ فتعلم مبادئ اللغتين العربية والسريانية. وكان هذا الكتّاب اوانئذ شهيراً بتدريس هذه اللغة الاخيرة ونبغ فيه رجال كثيرون من الكتبة والعلماء الافاضل الذين لا يزال ذكرهم جارياً على الْسن الحلبيين حتى هذا العصر الحاضر

٢ التلميذ

رأى جبرائيل الفتى نهضة وطنه الادبيّة وما صارت اليه فيه بضاعة الادب من الرواج وسوق العلم من الإنفاق وتسابق الشبان النبهاء الى تحصيلهما في اواخر ذلك العصر السابع عشر الزاهر. فتوفّر في متقبل الفترة وابان الرشاد على التخريج في فنون الآداب والمعارف فما اضلّهُ الصواب فيما رآهُ ولا خانه الجدّ الصاعد فيما صار اليه من التحصيل حتّى اصبح من الطلبة النابغين المبرّزين

ففي الثانية عشرة من سنّهِ سنة ١٦٨٢ درس مبادئ اللغتين الايطالية واللاتينية (٢ على الفيلسوف العلامة الخوري بطرس التولوي الشهير

وفي الرابعة عشرة من سنّهِ سنة ١٦٨٤ اشتغل في صرف اللغة العربية ونحوها على امام علماء حلب المسلمين الشيخ سليمان المعروف بالنحوي الشهير (٣ فاصاب بين ترابه السهم الفائز

وفي السادسة عشرة سنة ١٦٨٦ اقبل على تحصيل علوم العرب كالمعاني والبيان والبديع والجناس والعروض على الشيخ يعقوب بن نعمة الله بن ابي الغيث الدبسي الطرابلسي الحلبي الماروني المشهور

وفي الثامنة عشرة سنة ١٦٨٨ تعلم صرف اللغات السريانية والايطالية

١) سترى كلاماً وافياً من هذا الكتّاب في نبذة اخرى

٢) لم ارَ من ذكر ان صاحب الترجمة كان عارفاً باللاتينية ولكن الآثار الباقية تنبئ بذلك صريحاً

٣) في وهم البعض ان ابن فرحات اشتغل ايضاً في علم المعاني والبيان والبديع والعروض على الشيخ سليمان الآنف الذكر والصحيح ما نقلتهُ في المتن عن اصدق الرواة الاثبات

واللاتينية ونحوها ففاز بتحصيلها ورسخت قدمه اكثر ما يكون في اللغة الاولى

وفي التاسعة عشرة (١٦٨٩) اكبَّ على التبحُّر بالعلوم العالية كالمنطق والفلسفة والخطابة والطبيعيَّات والتاريخ الخاصّ والعام واللاهوت الادبي والنظري فنبغ في جميعها

ومما يجب ان لا يُذهل عنهُ هو ان جبرائيل الفتى لم يكن لهُ ولَع ولا لذَّة الَّا في المطالعة والتحصيل في حلقات التخريج لانهُ كان يرى العلم كالحق والجهل كالاثم على حدّ قوله :

العلمُ كالحقّ موجودَيْن من ازلٍ والجهل كالاثم موصوفين بالعدمِ
من يدمِ العلمَ يُظلم عقلُهُ ابدًا حتى تراهُ شبيه المال بالنَّعمِ
كم من نفوس غدت لله خالصةً بالعلم في صفحة القرطاس والقلم

فلا عجب بعد هذا ان نبغ بالعلوم وبرز في الآداب ونال شهرةً لم ينالها غيرهُ من معاصريهِ الافاضل حتى اصبح ممَّن يشار اليهم بالبنان

وكان استاذهُ التولوي شديد العجب بما آتى الله تلميذهُ من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة وكان يقول مرَّات ان جبرائيل سوف يكون من افراد العلماء المبرّزين في المشرق

واما استاذهُ الدبسي فكان يندهش مما عند تلميذهِ من قوة الحافظة العجيبة حتى انهُ كان يقول ان في ذاكرة جبرائيل نسخةً مشروحة لحوادث التوراة وايام العرب ووقائعهم وانسابهم وامثالهم واشعارهم وكتابًا جامعًا واضحًا لاخبار الامم والممالك واقاصيص الآباء القديسين وجميع ما يتعلَّق ببيعة الله الجامعة من حدوث بدَع واجتماع مجامع الى غير ذلك من الشؤون الحريَّة بالحفظ والاستظهار

واما استاذهُ الآخر الشيخ سليمان فكان قوي الاندهال مما كان عليهِ تلميذه من الادب والحذق والذكاء والرجاحة حتى انهُ كان يلقّبهُ بالعريف (اي كبير المكتب ورئيس الطلبة) ويجلسهُ الى جانبهِ اعجابًا واجلالًا . وفي ذات يوم سئل الشيخ : من انجب تلاميذك ؟ فقال : العلم خليَّةُ عسلٍ فكلٌّ من تلامذتي اشتار منها شيئًا واما تلميذي جبرائيل فاشتار ما فيها جميعهُ . هذا ما روى الرواة الثقات والله عليه وكيل

٣ الشاب

يعلم الخبير كيف يكون الشاب في شرخ الشباب هدفاً لسهام الامال الدنيوية التي تصرفهُ عن جهة الصواب بزخارفها حتى تبعدهُ عن الصراط القويم فيسير في مهامه الشهوات المويقة حتى اذا شاء التملص من شباكها على رغم الموانع التي تحول دون امنيتهِ يعلم بضرورة الوسائط الخاصة الخارجة عن محور الوسائل التي يفوز بها من الديانة عفوا

واما جبرائيل الشاب فاحتاط لنفسهِ من الطارئ المفاجئ في ابان الشباب فمال الى الفضيلة منذ نعومة اظفارهِ واوسع لها من صدره محلاً رحباً فاحتلتهُ وتمكنت منهُ وباحت لهُ بمكنون صدرها وفتحت لهُ ابواب خزائنها حتى استفاد ما فيها وضمهُ الى صدرهِ الرحيب فاصبحت نفسهُ كمرآة وضيئة تنعكس عنها اشعة الفضائل الالهية والادبية لا يشغلهُ عنها انكبابهُ على تحصيل العلوم العديدة ولا اشتغالهُ بالكتابة عند احد تجار الفرنجة ولا اعانتهُ لابيهِ فرحات بالمهام البيتية والمصالح التجارية المتنوعة فاضحى الخلق معجبين بفضائلهِ كما كانوا معجبين بعلومهِ وآدابهِ التي قصر عن لحاقهِ بها رجال عصرهِ المشاهير في حين ان صاحب الترجمة لم يكن يعجب بالمال والعلم اعجابهُ بالورع والتقى كما يدلُّك على ذلك قولهُ :

رأيت العلمَ في الدنيا سعيداً وغيري قال دون غنًى شقيُّ
كلانا مخطئٌ فيما نراهُ واصدقُنا بهِ رجل تقيُّ
ترينا الشمس في الآفاق نوراً ويحجبهُ غمامٌ فاحقيُّ

فلما ان بلغ جبرائيل السنة العشرين من عمرهِ سنة ١٦٩٠ وهي اول الشباب ومقتبل العمر بدأ ان يستحقر الدنيا وزهرها وصفوها وغناها وعكف على الزهد والقنوت والتورُّع ومطالعة الكتب الدينية فاخذ ينمو يوماً بعد يوم بالمحامد والفضائل حتى تحدَّث القوم بلطائف اخبارهِ الشائقة وتناقلوا انباء آثارهِ التقوية الرائقة فلم يزل شأنهُ عندهم في ارتفاع وقلوبهم عليهِ في اجتماع الى ان نال احدوثةً طيبة في تقواهُ الفريدة . وعلومهُ الواسعة لا يزال صداها يرنُّ في اذان البشر حتى العصر الحاضر

ومن آثار شبابهِ التقوية انهُ كان يبادر كل يوم الى بيت الرب القدسي فيقضي فيهِ شطراً من النهار اما مستحراً بالصلاة في الاخويات التقوية والعبادات الدينية واما

قائم بجانب هيكل العلي يخدم الكهنة ويساعدهم في اقامة الطرائق (الرتب) البيعية بابتهجات عجيب وخشوع فريد يندهش لهُ الحاضرون على اختلاف طوائفهم ومشاربهم . وهذه العادة الحميدة ما برحت مطروقةً في الشهباء على مثالهِ الى هذه الايام

وكان الله عزَّ وجلَّ يجتذب قلب الشاب الى اقتفاء آثار خطواتهِ ويسمعهُ صوتهُ العذب لاجل خدمتهِ في مصافّ عبادهِ ويدعوهُ الى اتباع المشورات الانجيلية الجليلة فاجاب في الثالثة والعشرين من سنّهِ سنة ١٦٩٣ الى الدعوة الالهية مسرورًا ورغب عن العاجلة الآجلة بكل ارتياح وهجر كل دنيوي اي الاهل والصحب والوطن والمال وخفض العيش وكل فخر زائل وآثر ان ينهج نهج الرهبانية توصلًا الى الكمال المسيحي السامي فكاشف بذلك عصابةً من صالحي الشبان الذين كانوا يرجعون اليهِ في شؤونهم ويصدرون عن رأيهِ في امورهم فوافقهُ على ما نوى خمسة عشر شابًا انتشر يوم ذاك فضل بعضهم واشتهر في آفاق البلاد السوريَّة

فانشرح صدر جبرائيل في توفيق مسعاه فانشد على البديهة اول اشعارهِ في نعمة التوفيق وهو بمناهُ الشائق :

ما كلُّ من يجوى الصلاح موفَّقٌ ما كلُّ من يُعطى الولاء مقلَّدُ
ما كلّ من نهج الطريقة منجحٌ ما كل من يبغي المعارف مرشدُ
ما كل من يروي الثقاف مصدَّقٌ ما كل من طلب الزهادة يزهدُ
ما كل من شاء الصعود بسلّم السخيرات للملكوت يومًا يصعدُ
ان لم تلاحظهُ بذلك نعمة التوفيق من لدن الاله فيمدُ

واما والداهُ الفاضلان فلم يحولا بينهُ وبين مشيئة داعيهِ القدوسة لعلمهما بان اعظم بركةٍ للعيال المسيحية ان يختار الله لهُ منها اولادًا ينقطعون لخدمتهِ تعالى ويزهدون في الدنيا وملاذّها

٢ الراهب

ما كادت الطريقة النسكية تنتشر في المشرق حتى اخذ النسّاك يتبطّنون وهاد لبنان التي توفّرت فيها اسباب الدعة والسكون اتباعًا للمشورات الانجيلية الجليلة وانقطاعًا الى الله تعالى عن جاذبة العالم المغرور فكان بعضهم يعيشون عيشةً عمومية فيجتمعون للصلاة والاشغال اليدويَّة والبعض الآخر ينضلون النزلة التامة فيقضون الحياة منفردين في المغاور المنحوتة في الصخور الصمّاء ولا تزال بقاياهم العهيدة في

وادي قاديشا تطاول الاعوام والاجيال صابرة على طوارق الايام وطوارق الليال

فلما شاء الله ان يجمع كلمة هؤلاء الرهبان والنساك الى جامعة واحدة غار جبرائيل الشاب ان ينهض باعباء هذا العمل الخطير فكاشف به اترابه الصلحاء فاتقاد لدعوته خمسة عشر شاباً اخلقهم بالذكر عبد الله بن ميخائيل (١ قرألي (٢ وجبرائيل ابن توما (٣ الحرّاء (٤ ويوسف ابن البتن فغادروا حلب الشهباء في غرّة شباط احد شهور عام ١٦٩٤ (٥ ميممين جبل لبنان المبارك عن طريق اورشليم حيث تيمّنوا بزيارة الاراضي المقدسة

ثم استأنفوا الترحال الى ان حطّوا عصاهُ في دير قنوبين مركز بطاركة الموارنة المنبوطين حيث مثلوا لدى فخر زمانه العلامة الطيّب الذكر البطريرك اسطفانس الدويهي الشهير فعرضوا لهُ ما في نيتهم فاذن لهم في استحداث الرهبانية (٦ واعطاهم

---

١) ويروى: عبد الاحد ابن قراعلي على ما في مختصر تاريخ لبنان وتاريخ الرهبانية المخطوط

٢) صار مطراناً على مدينة بيروت (لا على مدينة قبرس كما زعم البعض) في ١٢ ايلول سنة ١٧١٦ وشهد المجمع اللبناني الملتئم سنة ١٧٣٦ وتوفي سنة ١٧٤٢ في قرية زوق مصبح

٣) لا جرمانوس بن توما حرّاء كما روى الشيخ رشيد الدحداح في ص ٣٢ من مقدمتهِ على باب الاعراب وتابعهُ عليهِ الشيخ سعيد الشرتوني في ص ٩ من مقدمتهِ على ديوان المطران. والاغرب ان النفس الفاضل افرام الدبراني بعد ان ذكر اسمهُ جبرائيل (في ص ٣٠٣ من كتاب البيئة الحيّة) عاد فسماهُ جرمانوس (في حاشية ص ٣٠٥). والصحيح ما رويتُهُ عن جمهور مؤرخي الرهبانية اللبنانية بالاجماع

٤) أقيم مطراناً على جزيرة قبرس (لا على بيروت كما وهم البعض) سنة ١٧٢٣ وقضى نحبهُ سنة ١٧٥٢

٥) يروى سنة ١٦٩٣ كذا ورد في ص ٢٦٧ من تاريخ الموارنة للدويهي وص ٣٠٢ من كتاب البيئة الحيّة ويروى سنة ١٦٩٥ كذا جاء في ص ١٠٠ من مشرق السنة السادسة *. والراجح ما رويتُهُ في المتن عن جامع الروايات وتاريخ الرهبانية المفرد

٦) ان الرهبان الجدد قد اقاموا مدةً عند البطريرك في قنوبين وطافوا في انحائها بلاد الجبّة وجبيل وكسروان على ما قال صاحب تاريخ الرهبانية

---

* هكذا رويتُ في ترجمة الطيّب الذكر نيقولاوس الصائغ وقد حملني على هذا الرأي انّ في ديوان السيد جرمانوس فرحات المطبوع والمخطوط قصيدتين وهما الاولى من باب الهمزة والاولى من باب الحاء ورد في صدرهما انهُ قالهما في حلب سنة ١٦٩٥ وذلك دليل على ان ابن فرحات لم يخرج من الشهباء سنة ١٦٩٤ ما لم يُقَل انّ رفقتهُ سيقوهُ الى لبنان فتمهم السنة التالية ١٦٩٥ ولعلهُ القول الصحيح

دير القديسة مورا باهدن فاقاموا به واخذوا في انشاء رهبانيتهم تحت لواء القديس انطونيوس الملقب بالكبير وابي الرهبان (لهُ تابع)

الضمير او عين الله

عرَّبها بتصرف عن قصيدة للشاعر ڤكتور هوغو

الاخ الاديب بطرس ساره البترويّ اللبناني احد تلامذة كليتنا

١ تائهٌ بين الصحارى كالهَمَلْ يرتدي مع وُلدهِ جلدَ الحَمَلْ
شعرهُ يكسوهُ لكن لم يزلْ شاعرًا بالقرِّ يضنيهِ الوَجلْ
انَّ ذا قاينُ سفَّاكُ الدما

٢ رام من وجه العلي ان يهربا فغدا يطوي الفيافي مُغضَبا
وضياء الشمس حيًّا المغربا خيَّم الليل على تلك الرُبى
والشقيُّ الوغد اضحى مُرْتَمى

٣ وصل التائهُ وهو في تعَبْ نحو وادٍ واسعٍ يحوي الكرَبْ
شكتِ الاولاد والامُ الوصبْ وارادوا راحة بعد النَصَبْ
رقدوا في ظل ذيَّاك الحمى

٤ امَّا قاينُ فهاجتهُ الفِكَرْ لم ينم بل قام يشكو من سهرْ
ورأى وجهَ السماوات اعتكرْ في الدجى عينٌ تشعُّ كالقمرْ
حدَّقت فيهِ فأمسى في عمى

وفي ١٠ تشرين الثاني سنة ١٦٩٥ البسهم البطريرك الزيَّ الرهباني وسلم اليهم دير مرت مورا القريب من لعدن في جبة بشراي (اه عن ص٤ من تاريخ الرهبانية وص ٢٥٦ من تاريخ الموارنة للدويهي)

واما صاحب تاريخ المقاطعة الكسروانية فيقول في (ص ١٧٧): ان البطريرك البسهم الاكيم بعد خروجهم من حلب بثمانية اشهر والصواب باثنين وعشرين شهرًا كما يظهر بكل وضوح من تاريخ الرهبانية ومختصر تاريخ لبنان